عبد الرزاق عيد

الخرافات المؤسسة للسياسة الإسرائيلية

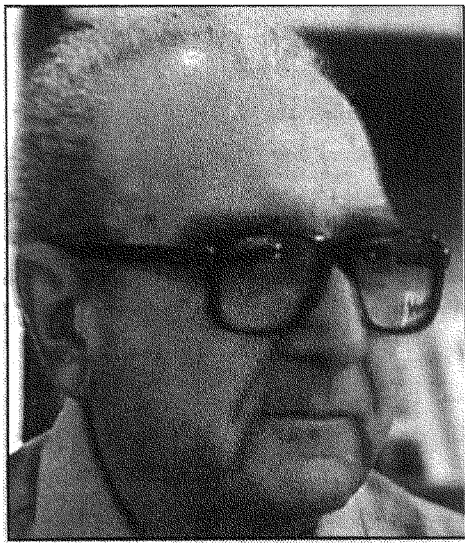

روجيه غارودي

استثارت محاكمة غارودي في الأوساط الثقافية والسياسية والإعلامية العربية ردودَ فعلٍ استثنائيةً من حيث حماسُها التضامني معه، وتنديدُها بالقوانين الفرنسية التي تحاصر وتقمع حريةَ التفكير والتعبير والرأي. بل إنّ غارودي لقي من التعاطف والتضامن من قبل المثقفين أكثرَ ممّا لقيه العراقُ شعباً ومجتمعاً وكياناً، وتعرضتِ الامبرياليةُ الفرنسيةُ للتنديد بطغيانها أكثرَ مما تعرضتْ له الأساطيلُ الأمريكيةُ التي تتبختر بالبحر الأحمر. فكانّ حالة الاختناق الديموقراطي التي يعيشها المثقفُ العربيُ لم تجد متنفّسَها سوى بالتنديد بالديموقراطية الفرنسية المزوّرة!

هذه المفارقة لا تدعونا إلى الغفلة عمّا للوبي الصهيوني من نفوذ، لا في فرنسا وحسب، بل وفي العالم الغربي والأمريكي عموماً. وغضبةُ الأوساط الصهيونية على غارودي تضع على عاتقنا نحن مسؤوليةً أخلاقيةً في التضامن معه، والتعاملِ مع كتابه بوصفه نصاً يناصر قضيةَ الحق (التي هي قضيتنا نحن كعرب بغضّ النظر عن تقييمنا الأخلاقي لتاريخه الفكريّ والسياسي)، ومن ثمّ في استثمار المادة المعلوماتية والوثائقية التي يحفل بها كتابُه **الأساطير المؤسّسة للسياسة الإسرائيلية**(*) من أجل إقامة نوع من الحوار الداخلي بين مشروعين: **المشروع الصهيوني** الاستعماري العنصري الذي نجح في الارتقاء بالوعي الديني، بل والميثي اليهودي، إلى مستوى الوعي الأمويّ القادر على توحيد أشتاتِ جماعاتٍ بشريةٍ متمايزة إثنياً وقومياً في إطار هدفٍ واحدٍ وإرادةٍ مشتركة واحدة... **والمشروع القومي** العربي التحرري الذي كان يُفترض تاريخياً أن يشكّل الأطروحة المضادة للمشروع الاستعماري الصهيوني. ولكنْ قبل طرح هذه الأسئلة على الكتاب، لا بدّ من تقديمه وعرض أهم الإشكالات التي هيكلتْ نصّه.

يجيب روجيه غارودي على السؤال الذي يوجّه البحثَ، ويعلّل إنجازَه إيّاهُ، بأنه يسعى إلى محاربة الهرطقة الصهيونية السياسية التي تركّز على استبدال «إله إسرائيل» بـ «دولة إسرائيل»، حيث تتبدى هذه الدولةُ على شكل حاملة طائراتٍ نووية مسخّرةٍ للأسياد الحاليين للعالم، أي للولايات المتحدة الأميركية التي تسعى إلى الاستيلاء على بترول الشرق الأوسط بوصفه عصبَ النموّ الأوروبي. ويقول وزير الخارجية الأمريكي كورديل هيل في هذا الصدد: «يجب أن يكون واضحاً ومفهوماً أنّ بترول العربية السعودية يشكّل أهم وأقوى ذراع محرّكة للعالم». ولهذا كان لا بدّ من إسرائيل بوصفها «الجنديَّ المرتزق الأقلّ كلفةً في عصرنا الحديث»، على حد تعبير جوزيف لانز السكرتير الأسبق لمنظمة الحلف الأطلسيّ.

هذه الهرطقة تتأسس على مجموعة من الخرافات، أُولاها أنّ «دولة إسرائيل» تشكّل «رداً إلهياً على المحرقة»، وكأنّ إسرائيل هي الملجأ الوحيد لضحايا البربرية الهتلرية، علماً أنّ إسحاق شامير - الذي عرض التحالف على هتلر - هو الذي يقول بـ «أنّ أغلبية المهاجرين الإسرائيليين لم يكونوا بقية الناجين من المحرقة، ولكنّهم من يهود البلاد العربية، أي أنهم من سكّان المنطقة نفسها».

* - روجيه غارودي: **الأساطير المؤسّسة للسياسة الإسرائيلية** (بيروت: دار عطية، ١٩٩٦).

شامير عرض التحالف على هتلر، وقال إنّ أغلبيّة المهاجرين إلى «إسرائيل» لم يكونوا من الناجين من «المحرقة»

ومن الهرطقات تعميمُ خرافة ملايين الضحايا الستة، للإيهام بأنّ البشرية تعرضتْ لأكبر عملية إبادةٍ بشريةٍ جماعيةٍ في التاريخ. فقد تناسى المهرطِقون الصهاينة مقتل ستين مليون هندي في أمريكا، ومئةِ مليونِ أسود. كما تناسَوْا هيروشيما وناغازاكي، وخمسينَ مليون ضحية سقطوا خلال الحرب الثانية، ومن بينهم سبعة عشر مليون سلافي. ويتم تعميمُ الرقم (٦ ملايين) رغم أنّ اللوحة التذكارية لنصب أوشفيتز تشير إلى أربعة ملايين ضحيّة، ثم عدلّت هذه اللوحة بلوائح جديدة بعد عام ١٩٩٤ لتشير إلى مليون ونصف مليون ضحية. ولإتمام الخديعة توجَّب إعطاءُ هذه المذابح اسماً لاهوتياً: «الهولوكست» أو «المحرقة» لإضفاء صفة «التضحية» على هذه المذابح، على نحو ما في المخطط الإلهي، كصلب المسيح مثلاً.

هكذا يمضي غارودي كاشفاً القدسيةَ اللاهوتيةَ القائمةَ على خرافة تحالفِ الشعب المختار مع الله، وتسلّم الولايةِ منه، ليجلو الدوافعَ العنصريةَ الاستعمارية الاستيطانية المغلّفة بشرعية التحالف الإلهي اليهودي، باعتبار «إسرائيل هي المؤشّر الحق للتاريخ الإلهي في العالم».

خرافة الوعد: «في ذلك اليوم، قطع الربُّ مع إبراهام ميثاقاً، قائلاً: لِنَسْلِكَ أُعطي هذه الأرضَ من نهر مصرَ إلى النهر الكبير إلى نهر الفرات» (سِفْر التكوين ١٥/١٨).

إنّ نصوص هذا السِّفْر تذكر بأشكالٍ مختلفة أنّ الله وَعَد الأبناء، وسلالَتَهُم، بامتلاك بلادٍ، هي اليوم «اليهودا» و«السامرة»، أي الضفة الغربيّة. ويستند هذا الوعد إلى تقسيمٍ وهميّ للتاريخ، يجعل منه عصوراً متتابعة (من الوعد البطركي، إلى العبودية في مصر، فغزو كنعان). ويَخْلُص غارودي، اعتماداً على الكثير من الدراسات، أنّ هذا التاريخ التوراتي لا يعلّمنا عن الأحداث بل عن أولئك الذين صنعوها (ص ٢٩). وعلى هذا فلسنا في وضع يسمح لنا بالجزم بأنّ الله قد تجلّى في هذه الحقبة أو تلكَ لشخصيةٍ تاريخيةٍ اسمُها ابراهيم، ليسلّمه الصكوكَ القانونيةَ لتمليكه بلادَ كنعان. بل لدينا من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أنّ مشهد سفر التكوين ليس انعكاساً لحادثة تاريخية محددة.

وعلى هذا يَخْلُص غارودي، في إطار تناوله لخرافة الوعد، إلى أنّ مقتل رابين على يد ايغال أمير، وجريمةَ باروخ جولدشتاين في الحَرَم الإبراهيمي، يندرجان في المنطق المحض لميثولوجيا الأصولية الصهيونية؛ فأمير نفسه يعلن «أنّ أمر القتل جاء من الرب» كما هي الحال أيام يُوشَع.

خرافة الشعب المختار: «هكذا يقول الرب: اسرائيل ابني البِكْر».

هذه الخرافة تتأسس على اعتبار التوحيد مولوداً مع العهد القديم؛ فهو بذلك امتيازٌ خَصَّه اللهُ لشعبه المختار. وهنا يسوق غارودي الكثيرَ من الأدلّة والبراهين على أنّ فكرة التوحيد سابقةٌ على العهد القديم؛ بل إنّ محرِّرَي التوراة لم يكونا موحِّدَيْن: فهما يتحدثان عن «تفوق الإله العِبْريّ على الآلهة الأخرى» رغم أنّ فكرة التوحيد بدأت تتأكد بعد النفي، أي في النصف الثاني من القرن السادس ق.م. إلا أنّ أخناتون منذ القرن الثالث عشر كان قد أسس لهذه الفكرة، وكانت أنشودتُه إلى الشمس قد أُدرجتْ بنصّها في الزّبور. كما أنّ الديانة البابلية أقرّتْ أنّ الآلهة المتعددة ليست إلا وجوهاً مختلفة لإله واحدٍ هو «مردوخ». وعلى هذا فبذرة التوحيد وُلدتْ في أحضان ديانات الشرق الأوسط؛ وفي وسط هذه الأديان تشكّل العبرانيون.

بل إنّ خطى التوحيد في الهند كانت أوغل في القدم، حيث «الفيدا» الهندية تتحدث عن «إلهٍ واحد، خالقِ كل شيء، ولقد تعددت الأسماءُ ولكنّ الله واحد» (ص ٤٤).

خرافة يشوع والتطهير العرقي: يعلل غارودي اختيارَه لموضوع استثمارِ الصهيونية ماضياً مبنياً على الخرافات وجعلهَ دفّةَ توجيهٍ للمستقبل (وهو ما يمكن أن يكون انتحاراً كونياً) بدور اللوبي الأقوى في «القوة الأقوى» أي الولايات المتحدة.

لقد حاولت الصهيونية المعاصرة للتوراة أن تضفي الشرعية على غزوات داوود وامبراطوريته، رغم أنّ الاكتشافات الأثرية والوثائق تكذّبها. بل إنّ بقايا مدينة أور في العراق لم تعط معلوماتٍ عن إبراهيم، أكثر مما أعطتنا الحفريات في مدينة طروادة عن هيكتور أو بريام.

وتحاول القراءاتُ المعاصرة أن تفاخر بعملية «التطهير العرقي» التي أسس لها موسى (وفق سِفْر الأعداد) وتابع نَهْجَها يشوع خليفةُ موسى، تنفيذاً لأوامر إله الحرب. وسِفْر التثنية يكرر تأكيده، لا على انتزاع الأرض وطرد سكانها الأصليين فحسب، بل على المذابح المرتكبة أيضاً. وهو الأسلوب نفسُه الذي مارسته الصهيونيةُ منذ نشأتها، وصولاً إلى الحاخام كاهانا، بحق الفلسطينيين. أليس طريقُ موسى ويوشع هو نفسه طريقَ بيغن عندما ذبح ٢٥٤ فلسطينياً من سكّان دير ياسين، رجالاً ونساءً وأطفالاً، بيد عصابات الأرغون، بغية إجبار العرب غير المسلمين على الهرب عن طريق إرهابهم؟

وعملية التطهير العرقي الجارية في إسرائيل إنما هي نتيجةٌ لمبدإ «النقاء العرقي» الذي يمنع اختلاطَ دم اليهودي بدم «غيرِ نقي»، أيْ بدم كلّ الآخرين من غير اليهود. ولذلك يستنتج حاييم كوهي ـ حسَب غارودي ـ أنّ سخرية القدر أرادت هذه المرة أن تكون الفرضياتُ البيولوجية والعرقية التي أشاعها النازيون وأوحتْ بالقوانين المخزية في نورمبرغ، هي نفسها التي تُستخدم أساساً لتعريف اليهودية في دولة إسرائيل (ص ٥٧).

وعلى هذا كانت إسرائيل بحاجة إلى أن تصادر الولاياتُ المتحدة منظمة الأمم المتحدة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، فألغتْ قرارَ هيئة الأمم الذي عدّ الصهيونيّة شكلاً من أشكال التمييز العنصري.

هذه النزعة العنصرية التي حَكَمَتْ رؤيةَ مؤسسي الصهيونية امتدتْ لتطبَّق على اليهود أنفسهم. فموافقة بن غوريون على تأسيس شركة «هافار» لفكّ الحصار الاقتصادي عن الألمان لم تهدف إلا إلى «الإنقاذ الاصطفائي» لليهود والأغنياء (ص ٨٣). وعلى هذا لم يكن هدفُ القيادة الصهيونية ـ أثناء حكم هتلر ـ إنقاذَ اليهود من نار النازي، وإنما تأسيس دولةٍ يهوديةٍ اصطفائيةٍ قويةٍ، حسب المشروع الصهيوني الذي صاغه هرتزل (ص ٨٤).

خرافات القرن العشرين: تحت هذا العنوان يتناول غارودي مجموعةً من الخرافات التي أشاعتها الصهيونية، وأولى هذه الخرافات «خرافةُ الصهيونية المعادية للفاشية». هنا يعتمد المؤلف على مصادر يهودية، وعلى نصوص كُتبتْ بأيديهم، فيسوق لنا من كتاب **النبيّ مسلّحاً** الذي ألّفه «بازورهار» أنّ إسحق شامير ارتكب في عام ١٩٤٦ «جريمة لا تغتفر من وجهة النظر الأخلاقية، وذلك حين شجّع إقامةَ تحالفٍ مع هتلر، مع ألمانيا النازية ضد بريطانيا العظمى».

وكان القادة الصهاينة يُنْكِرون على اليهود المشاركةَ في الحركات المناهضة للفاشية. وقد شنَّت صحافتُهم هجوماً عنيفاً على اليهود المقاتلين في إسبانيا بدلاً من المجيء إلى فلسطين، فأكد أولئك القادة أنّ الهدف الوحيد لليهودية هو «بناء دولة اسرائيل».

والخرافة الثانية هي خرافة العدالة في نورمبرغ، حيث شكّل الحلفاءُ المنتصرون في الحرب العالمية الثانية المحكمة العسكرية الدولية عام ١٩٤٥ لملاحقة مجرمي هذه الحرب الكبار ومعاقبتهم. ففي هذه المحكمة تمّ ترسيمُ خرافة الملايين الستة من اليهود الذين ابيدوا، عندما أُقِرّ هنا الرقمُ رقماً رسمياً، وراح يُستخدمُ منذ ذلك الحين للتلاعب بالرأي العام في الصحافة المكتوبة والمسموعة.

ويكرّس غارودي لهذه الخرافة فصلاً خاصاً لتفنيدها، مُظْهِراً أنّ العدو الأساسي لهتلر قد كان الشيوعية. فلقد ارتبطت اللاسامـيـةُ عند هتلر، منذ خطاباته الأولى، بالصراع ضد البلشفية، وكانت المعتقلات الأولى التي بناها من أجل الشيوعيين الألمان، ومات فيها الآلاف منهم بما فيهم زعيمهم «تالمان». لكنّ هتلر اتخذ من اليهودية ذريعةً، انطلاقاً من ايديولوجيته العِرْقية، وكان موقفه من الشيوعية ـ بدءاً من بياناته السياسية الأولى ـ قد أكسبه تسامحَ الديموقراطيات الغربية وتنازلاتها.

وكانت ادّعاءاتُه الأولى في صراعه ضد اليهود متناقضة: فمن جهةٍ زعم أنّ ثورة اوكتوبر هي مِنْ صنيعهم هم (ممثَّلين بزينوفييف مامنيف) وأنها تهدد أوروبا بفرض الشيوعية عليها عبر تواطؤ اليهود معها؛ لكنه من جهة ثانية كان يهاجم اليهود بوصفهم تجسيداً للرأسمالية العالمية (ص ٢٤٤).

وعلى هذا فإنّ ترويج خرافة الملايين الستة ليس إلا تمويهاً للكارثة الإنسانية التي خلَّفَتْها النازية. وذلك لأنّ هتلر طبّق على «البيض» ما طبّقه الاستعمارُ الاستيطانيُّ الأوروبي طيلة خمسة قرون على «الملوّنين»: فالهنود الحمر أبيد منهم ستون مليوناً إنسان من أصل ثمانين مليوناً. أما في أفريقيا

> **«خرافة الإبادة وغرف الغاز» تلائم المستعمرين الأوروبيين لأنها تحوّل الأنظار عن استئصال الهنود الحمر، ومذبحة دريسدن، ومجزرتَيْ هيروشيما وناغازاكي**

فقد هُجِّر عشرون مليون أفريقي إلى اميركا، وكان النخّاسون يقتلون عشرة أفارقة كي يتمكنوا من احتجاز أفريقي واحد، ولهذا نجد أنّ تجارة الرقيق الأبيض كلّفت أفريقيا ما بين مئة إلى مئتي مليون قتيل.

وعلى هذا فإنّ خرافة الإبادة وغرف الغاز كانت تلائم المستعمرين الأوروبيين أيضاً، لأنها تحوّل الأنظار عن جرائمهم هم في «استئصال الهنود الحمر، وتجارة الرقيق الأبيض، واستعباد الأفارقة» (ص ١٤٨). وهي تحوّل الأنظار عن مذبحة دريسدن التي قضت على مئتيْ ألف مدني دون أيّ مبرر عسكري، وذلك عندما كان الجيشُ الألماني يتراجع أمام الهجوم السوفييتي. وهي تحوّل الأنظار أيضاً عن القنبلتين الذريتين اللتين ألقتهما الولاياتُ المتحدة على هيروشيما وناغازاكي، فقُتل أكثر من مئتي ألف شخص وأصيب أكثر من مئة وخمسين ألف جريح إصابةً دائمة، دون أيّ مبرر عسكري هنا أيضاً، لأن اليابان كانت قد دخلت في مفاوضات استسلام مع الاتحاد السوفييتي!

ولعلّ أكثر الأساطير التي تصدّى لها غارودي تفنيداً ودحضاً في كتابه هي أسطورة الإبادة الجماعية بغرف الغاز. فهو يستند إلى وثائق كثيرة تشكّك بوجود أيّ أمرٍ مكتوبٍ أو وثيقةٍ صادرينِ عن هتلر بهذا الخصوص. وهذه هي أكثر الأساطير التي أثارت ردود فعل ضد غارودي من قِبل المنظمة اليهودية L.I.C.R.A التي سبق أنْ أقامتْ دعوةً ضده وضد الأب لولونغ والقس ماتيو، لأنهم قالوا صيف ١٩٨٢ إنّ اجتياح لبنان في ذلك العام هو جزء من منهج السياسة الصهيونية.

ويشدِّد غارودي على أنّه لا يقصد من نقد «خرافة المحرقة» تعدادَ مقابر الضحايا؛ فلو لم يكن هناك إلا رجلٌ واحدٌ قُتِل بسبب معتقده أو عِرْقه، لكان قتلُهُ جريمةً في حق الإنسانية جمعاء. وإنما هو يعترضُ فحسب على استغلالٍ سياسيٍ يقوم به شعبٌ لم يكن موجوداً يوم ارتكاب الجرائم، وعلى أرقامٍ أُفْرِطَ في تقديرها اعتباطاً بغيةَ إثباتِ أنّ معاناة البعض لم تماثلها معاناةُ الجميع. ثم إنّ إضفاءَ صفةِ القداسة الدينية (باستخدام القاموس الديني: «هولوكوست» لوصف ما جرى) إنما يهدف إلى إغفال جرائم إبادةٍ جماعيةٍ أشدَّ وحشيةً.

إنّ المستفيد الأكبر من ذلك كلّه هو الصهاينة. فقد أعطوا أنفسهم صفةَ الضحايا الوحيدين، عندما جعلوا من أنفسهم الضحايا الوحيدين للهتلرية، رغم سقوط خمسين مليون قتيل في هذه الحرب. فخلقوا في غمرة هذا التسابق دولةَ إسرائيل، ووضعوها فوق كل قانون، ليعطوا الشرعية لكل الانتهاكات الخارجية والداخلية (ص ٢٤٢).

التأويل الصهيوني للحاكمية الإلهية منح اليهود أرضاً، لكنّ التأويل الإسلامي لهذه الحاكمية لم يمنحنا سوى الحروب الأهلية في الجزائر ومصر وأفغانستان

المفارقات التأويلية للأسطورة

١ ـ لعلّ قدرة الأسطورة على النفاذ إلى نسيج الوعي الاجتماعي تبلغ ذروتَها في المثال التالي الذي يمتلك إشعاعاً دلالياً نفّاذاً بالنسبة إلينا، نحن العربَ والمسلمين منهم بخاصة. وهذا المثال يقوم على مفارقةٍ مؤدّاها أنّ الإحصائيات، حتى الإسرائيلية منها، تشير إلى أنّ ١٥٪ من الشعب الإسرائيلي متديّنون، ولكنّ هذا لا يمنع ٩٠٪ من الإسرائيليين من التأكيد على أنّ الأرض قد أعطاهم إيّاها الربُّ... الذي لا يؤمنون به بالأصل! (ص ١٦٣).

نقول إنّ هذه المفارقة تحمل بعداً دلالياً وظيفياً هاماً للفكر العربي الإسلامي في معركة التحدي الحضاري مع الصهيونية والغرب الاستعماري. فقد عجز الفكرُ العربي بتياراته المتنوعة (ليبرالية، إصلاحية دينية، قومية، يسارية) عن إدراج الإسلام في منظمةِ وعيٍ مدنيٍ حديثٍ قادرٍ على إنتاج وعيٍ بالهوية الأمويّة التي تتجاوزُ المذهبياتِ والمللَ والنِّحَلَ. وبالمقابل، استطاعت الصهيونية أن تقوم بعمليةِ تأويلٍ أسطوريةٍ خارقةٍ لتراثها اليهودي، عندما تمكنتْ من جعل الدين عنصراً في بنيةٍ تكوينيةٍ نظريةٍ مختلفة، وهي القومية بوصفها نتاجَ وعيٍ مدنيٍ ليبراليٍ ديموقراطيٍ حديث. ولهذا كانت الصهيونية السياسية، التي أسّسَها هرتزل، قد دينتْ في ذلك الحين من قِبل كلِّ حاخامات العالم الذين اعتبروها مروقاً عن العقيدة اليهودية لأنّها لم تنبثق من الإيمان اليهودي، بل من القومية والاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر. إنّ مسار الحركة الصهيونية هو مسارُ تحويلِ الأساطير إلى وقائع ماديةٍ. ولعلّ المعادل النظري لهذه السيرورة هو ذلك الإجماعُ الذي يتحدث عنه غارودي، وهو إجماعٌ حول مبدإٍ يقول إنّ «الأرض هبةُ الله»، ويتبنّاهُ المؤمنون والملحدون الذين هم الأكثرية المطلقة في مجتمعٍ منخرطٍ بالحداثة حتى النخاع، وقادرٍ في الآن ذاته على إعادة إنتاج ميثولوجيا، وتأويلها تأويلاً مُدنياً حداثياً يجعل من اليهودية كدين هويةَ انتماءٍ قوميٍ للمتديّنِ والملحدِ معاً.

هذا السؤال مطروح على تيّار الحداثة التراثية العربية اليوم. فعوضاً عن مباركةِ ذاتيةِ الأمة وبلسمةِ قروحها المتقيّحةِ تأخراً وتردّياً وانحطاطاً، وعوضاً عن شرعنة فوّاتها الحضاري، نقول: عوضاً عن عملية تحديث التأخر هذه، فإنّ المطلوب من تيار «التَّرْثَنة» هذا أن يعيد تأويل التراث الإسلامي على ضوء السؤال الوطني والقومي العلماني الديموقراطي الحديث القادر على جعل الإسلام هويةً حضاريةً وثقافيةً وقوةً دافعةً للجميع ـ للمتدين والعلماني والقومي والملحد ـ عبر إنتاج قراءةٍ دلاليةٍ مضادةٍ للقراءة التأويلية التزويرية الصهيونية التي تحوّل الخرافاتِ وقائعَ، والأساطيرَ عقائدَ، عبر أكبر عملية احتيالٍ تأويليٍ عقائديٍ في التاريخ، لكون «إسرائيل» هي الدولة الوحيدة التي تتأسس فيها الأمةُ على وحدة الدين [وحده].

٢ ـ إنّ مفهوم الحاكمية الذي تُنْتجه القراءةُ التأويليةُ الصهيونية للتراث الأسطوري اليهودي يؤسِّس لحاكميةٍ إلهيةٍ وطنيةٍ (الأرض وعد للرب). وبذلك يغدو من المضحك أن تجادل الربَّ، وتطالبَهُ بصكوكٍ ومستنداتٍ قانونية حول حق شعب التوراة بأرض التوراة، على حد تعبير موشيه ديان. وأما الحاكمية التي أنتجتها القراءةُ التأويليةُ الإسلامية عند المودودي وسيد قطب ـ وهي القراءة/الترسيمة المهيمنة ـ فتقوم على أنّ البشر لا يملكون من أمرهم شيئاً: لا يملكون أرضاً ولا فكراً ولا إرادة، بل إنّ ذلك كله هو ملكُ الله، وكلُّ محاولة للتفكير والتدبير البشري إنما هي اعتداءٌ على سلطة الله. وعلى هذا لم تُنتجْ هذه الحاكمية المفكِّرة للمجتمع ـ ببشره وقوانينه ونظمه وشرائعه، في إطار المشروع التحرري الوطني والقومي العربي ـ سوى الحروب الأهلية (في الجزائر ومصر وأفغانستان...).

فإذا كان التأويلُ الصهيوني للحاكمية الإلهية قد مَنَحَ اليهود أرضاً وأمة ودولة، فإنّ التأويل الإسلامي للحاكمية الإلهية لم يمنحنا سوى دماء المسلمين المهدورة على أيدي المسلمين... علماً أن «دم المسلم على المسلم حرام»، في حين أنّ المجتمع الإسرائيلي أصيب بالذهول عندما اغتال أمير رابين واستنكر أن يقتل يهوديٌّ يهودياً آخر. ولو أنّ الدماء الإسلامية التي أُهرقتْ على أراضي المسلمين وبيد المسلمين أنفسهم، لو أن هذه الدماء بُذلتْ على أرض فلسطين، وضد الأمريكان مصالحَ وعسكراً، لما أمكن أمريكا أن تغادر أساطيلُها حدودَها الأقليمية!

٣ ـ المفارقة الثالثة في القراءة التأويلية، حسب كتاب غارودي، تظهر في أنّ التأويل الصهيوني يتعامل مع الأنبياء اليهود تعاملاً فانتازياً شعرياً، بوصفهم نماذجَ أسطوريةً بدئية لعملية الخلق والتكوين. فالأساطير تشكّل هنا معادلاً لسيرورة الجماعة التي تنتقل من المرحلة الأبوية الرعوية إلى مرحلة الخروج (الحرية)، فمرحلةِ الاندماج الأمويِّ الذي يجمع شتات اليهود في العالم اليوم كما جمع الوعدُ الإلهيُّ القبائلَ والأسباطَ اليهودية من قبل.

فالتأويل الصهيوني، إذن، تأويلٌ علمانيٌّ حداثيٌّ بل وإلحاديٌّ يستثمر الأساطير بوصفها النموذجَ البدئيَّ، لصياغة المخيال الاجتماعي الموحد. وأما التأويل الإسلامي فيتعامل مع أساطير بني إسرائيل بوصفها حقائقَ تاريخيةً لا تقبل الشك؛ وموقفُ طه حسين من قصة إبراهيم معروف، حيث يُجْبَرُ هذا المثقفُ المصري على إلغاء أطروحته القائلة بأنّ الكتب المقدسة لا يمكن أن تكون وثائقَ دالةً على صحة الوقائع التاريخية أو خَطَئِها.

وها هو غارودي يدحض وجود إبراهيم أصلاً، ويذكّر بأنّ التنقيب في مدينة أور العراقية لم يُقدِّمْ لنا أيةَ وثيقةٍ على وجوده، أكثر من وجود هكتور أو بريام في الملاحم اليونانية.

ومع ذلك فإنّ آراء غارودي تمر وسط جلبة (غَراضة) التأييد الإسلامي للمفكر الإسلامي!

إنّ ما هو أسطوري في البنية الذهنية التكوينية اليهودية، إذن، إنما هو واقعة وحقيقة لا يتطرق إليهما الشكُّ في البنية الذهنية التكوينية الإسلامية. ولعلّ هذا الجذر المعرفي بين البنيتين يفسِّر لنا المصائرَ التاريخية التي يؤول إليها الصراعُ اليومَ.

بل إنّ القراءة التأويلية السلفية الإسلامية تُنتج في الوعي الجمعي الإسلامي شعوراً ووعياً معادياً للحضارة الفرعونية، تجاوباً وتعاطفاً مع أنبياء بني إسرائيل (يوسف ـ موسى)! ولعلّ هذا الوعي الميثي التأويلي المضمر في البنية الذهنية الإسلامية هو الذي يفسِّر هذا العداءَ الشديدَ، حتى من قِبل الوعي القومي العربي، لبعث التراث الفرعوني المصري. ولم يخرج عن هذه الجوقة سوى مثقفٍ قومي يساريّ وحيدٍ هو ياسين الحافظ، عندما وجد في هذا البعث انتقالاً بالوعي الاجتماعي المصري من «وعي المِلّة إلى وعي الأمة»، والذي يهيِّئ بدوره العقلَ المصريَّ للاندراج في المشروع القومي العربي دون حشوة سلفية كالمشروع القومي العربي المشرقي المستند إلى جذر حجازي عبر زعامة الشريف حسين للثورة العربية.

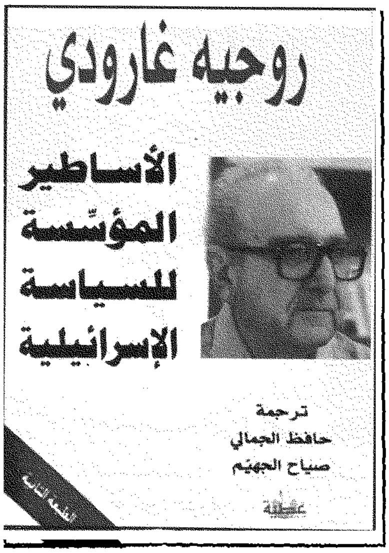

٤ ـ يقوم غارودي بإعادة نشر وثيقةٍ كان قد نشرها من قبل في كتابه: **فلسطين أرض الرسالات السماوية** الصادر سنة ١٩٨٦. وهذه الوثيقة صادرة عن المنظمة الصهيونية العالمية في القدس، وتكشف عن الخطط الاستراتيجية لإسرائيل، حيث تقول إنّ مصر قد أصبحت جثة هامدة، وإنّ تغذية الصراع الإسلامي ـ القبطي سيساعد على تحقيق أهداف إسرائيل في تقسيم مصر إلى أقاليم. وما إن تتفتت مصر، وتفقد قدرتَها المركزية، حتى تشهد بلدانٌ أخرى مثل ليبيا والسودان وغيرهما تفتتاً مماثلاً... وأما تقسيم لبنان، فسيجسِّد ما سيحدث في معظم البلدان العربية. وأما تفجير سورية والعراق إلى أقاليم محدودة فيجب أن يكون على المدى الطويل «هدفاً له الأولويةُ عند إسرائيل». ستكون المرحلة الأولى ـ بحسب هذه الوثيقة ـ هي تحطيم القوى العسكرية لهذه الدول، ويمكن للبنى الطائفية في المنطقة أن تؤدي إلى قيام دويلات طائفية... والعراق الغني بالبترول، يقع في خط الأهداف الإسرائيلية، و«سيكون تفكُّكه ـ بالنسبة إلينا ـ أهمّ من تفكك دولِ المنطقة الأخرى، لأنه يمثِّل على المدى القصير التهديدَ الأكثرَ جديةً لإسرائيل».

يعلِّق غارودي على نص الوثيقة فيقول إنّ اللوبي الإسرائيلي قد نجح في تنفيذ مخطَّطه بواسطة الولايات المتحدة. فالمواجهة المباشرة تحمل الكثير من المخاطر. والحربُ

كان غارودي قُلَّباً وقنَّاص فرصٍ، ولكنه يخوض اليوم أنبل معركة في هذا العصر

ضد العراق مثال صارخ، حيث استطاعت جماعتا الضغط القويتان دفعَ الولايات المتحدة إلى إطلاق المعركة، لأنّ اللوبي الصهيوني يعتبر أنّ إزاحة العراق سيُبعد تهديدَ البلد العربيِّ الأكثر قوةً، ويعتبر أنّ الحرب ستطلق الاقتصاد، كما وضعت الحربُ العالميةُ الثانية حداً لأزمة ١٩٢٩، وكما أدت الحرب الكورية إلى ازدهار جديد (ص ١٩٧ ـ ١٩٩).

لكنّ المفارقة تتبدى في هذا السياق في أنّ غارودي يعود إلى نشر وثيقة كان قد نشرها قبل عشر سنوات؛ ومع ذلك فإنّ العرب لم يقرؤوها. لقد ضُرب العراقُ في المرة الأولى، والحكّام العربُ يشاركون في تنفيذ الشرعية الدولية تحت قيادة القوات الأمريكية. وها هي تمر سبعُ سنوات على الحرب كي يتلمسوا جدية وثيقة المنظمة الصهيونية العالمية، التي لا تخبئ أهدافها، بل تعلن عن مخططها على مرأى الخصوم ومسمعهم، لكنها ـ فيما يبدو ـ تراهن على أن هؤلاء الخصوم صمٌّ، بُكْمٌ، عُمْيٌ...

وأخيراً، فإنّنا إزاء كتابٍ لافت في كمية المعلومات المعطاة، وفي القدرة على استثمارها في الكشف عن المطامع الدنيئة المغلّفةِ بقبضة السماء، قبضةِ الوعودِ السماوية التي يُطْلقها آلهةُ الحرب اليهود ـ من موسى ويوشع، وصولاً إلى بيغن ونتنياهو ـ الذين لا يشربون خمرتهم المقدسة إلا في جماجم الضحايا.

لقد قيل عن غارودي إنّه رَجلٌ قُلّب، وقنّاصُ فرص، وإنّه كان حتى الأمس القريب (عام ١٩٦٦) يقف أمام حائط المبكى، ويوفده غولدمان رسولاً إلى عبد الناصر، ويدرس مع «برنارد ليش» مؤسس منظمة «ليكرا» ـ وهي المنظمة نفسها التي تقاضيه اليومَ! ـ أثناء نفيهما في معسكر الاعتقال دروساً مسائية، حول عظمة الأنبياء اليهود وعالميّتهم وقدراتهم التحررية (ص ١٠). وهذه المعلومات يقر بها غارودي نفسُه في كتابه، إذ يدرأ عن نفسه تهمةَ اللاسامية. ولعل تاريخ علاقته باليهودية هذه تفسِّر تلك الحملةَ الشرسة في الأوساط الصهيونية ضد مفكرٍ خسرتْهُ أساطيرُهُم.

ولكنْ أياً كان تاريخُ غارودي، وأياً كانت مواقفه، فإنّه يكفيه نبلاً وشرفاً أنه يخوض اليومَ أشرفَ وأنبلَ معركةٍ في هذا العصر، وهي المعركة ضد الأساطير الصهيونية المؤسِّسة للسياسة الإسرائيلية.

دمشق